مدارس الشعر

رأينا فى دراستنا فى الشعر الفاطمى أن الشعراء كانوا موزعين بين اتجاهات فنية مختلفة وكل جماعة اتخذوا مذهبا فى الفن يختلف عن مذهب الجماعة الأخرى، مما جعلنا نقسمهم إلى مدارس فنية كان أبرزها:

أولا: مدرسة شعراء العقائد: وهؤلاء هم شعراء المدح الذين ظهرت فى أشعارهم المصطلحات والعقائد الفاطمية، واستخدموا ذلك كله فى مدح الأئمة مما جعل شعراء هذه المدرسة تتمايز بتلك الصفة الخاصة عن غيرهم من شعراء العصر، كانوا مضطرين إلى أن يلائموا بين هذه المصطلحات، وبين الألفاظ الضخمة التى استخدموها فى شعرهم فجاء شعرهم فيه من غريب المصطلحات ومن غريب الألفاظ ما أدى أحيانا إلى شىء من التعقيد، وإلى أن يكون كلامهم أقرب إلى النظم فى أغلب الأحيان، استمرت هذه المدرسة بعد العصر الفاطمى أى فى عصر الأيوبيين بالرغم من أن الشعراء لم يكونوا من الشيعة، وأن الممدوحين لم يكونوا أئمة الشيعة على نحو ما أظهرنا ذلك فى فصل الشعر والتشيع وفصل الشعر والتصوف من هذا الكتاب، فالعقائد الفاطمية استمرت مصطلحاتها فى شعر المدح، غير أن مدلولاتها تحولت وتطورت إلى غير ما كانت تعرف به فى عصر الفاطميين، والشعراء الذين تحدثوا بهذه المصطلحات خضعوا لنفس المؤثرات الفنية التى كانت عند الشعراء الفاطميين، وقد تحدثنا لنفس المؤثرات الفنية التى كانت عند الشعراء الفاطميين، وقد تحدثنا عن ذلك بما فيه الكفاية. غير أن شعراء هذه المدرسة فى العصر الأيوبى كانوا قلة ولم يختصوا بتلك المدرسة. ولم يوقفوا شعرهم على هذا النحو من الفن، إنما كانوا يلمون بخصائص هذه المدرسة إلماما هينا على نحو ما رأيناه عند ابن النبيه وابن سناء الملك وغيرهما.

ثانيا: مدرسة الرقة والسهولة: وهى تلك المدرسة التى تعتبر فى العصر الأيوبى امتدادا وتطورا للفن الذى يلائم الحياة المصرية والبيئة المصرية، وكانت تضم أكثر الشعراء فى ذلك العصر، فالبيئة المصرية الطبيعية بيئة سهلة لينة، ليس بها التعقيدات التى للبيئات الأخرى، فالأرض منبسطة ليس بها ارتفاعات وانخفاضات وليس عندنا الأعاصير والزوابع التى فى البلاد الأخرى، ويسر نهر النيل مشكلة الرى والزرع مما جعل المصرى يميل إلى السهولة فى كل شىء، ويكلف بما هو لين رقيق، ولذلك كان فن القول فى مصر سواء

أكان شعرا أم نثرا يتجه إلى هذا الاتجاه واضحا جليا فى شعر مصر منذ العصر العباسى، وظهر ظهورا لافتا فى عصر الفاطميين حيث كان أكثر شعراء هذا العصر يتبعون هذا المذهب المصرى الخالص، وجاء العصر الأيوبى فاستمر تيار هذا المذهب فى قوة وعنف بحيث كاد جميع شعراء هذا العصر يتبعون هذا المذهب المصرى الخالص، وجاء العصر الأيوبى فاستمر تيار هذا المذهب فى قوة وعنف بحيث كاد جميع شعراء هذا العصر يتبعون تلك الطريقة فى فنهم، فالألفاظ لينة لم يعرفها الشعراء أصحاب الألفاظ الجزلة الفخمة، وبحور الشعر مجزوءة أو قصيرة ولا يظهر فى فنهم أى لون من ألوان التكلف، وقل أن نجد ألوان الزينة اللفظية إلا ما جاء للتظرف فشعرهم صادر عن طبعهم، ويجرى على ألسنتهم وكأنهم يغرفون من بحر، وأكثر شعراء هذه المدرسة من الغزليين حتى إن مذهبهم عرف فى العصر الأيوبى بالطريقة الغرامية[1]. فقد اهتم شعراء هذه المدرسة اهتماما خاصا بالمقدمات الغزلية فى قصائدهم التى قصدوا بها إلى موضوعات الشعر المختلفة كما أكثروا من الغزل وأطالوا فيه، وقد رأى أصحاب الطريقة الغرامية تناسب شطرى بيت الابتداء فإن كان الشطر الثانى من مطلع القصيدة ليس من جنس الشطر الأول اعتبر ذلك الطريق الغرامى؛ ويروى أن ابن سعيد المغربى فى زيارته لمصر اجتمع بالبهاء زهير وسأله أن يرشده السبيل إلى الطريقة الغرامية هذه، فوجهه البهاء لقراءة بعض دواوين الشعراء على أن يراجعه بعد ذلك، فغاب ابن سعيد مدة أكثر فيها من قراءة هذه الدواوين إلى أن حفظ أغلبها، ثم اجتمع بعد ذلك بالبهاء زهير وتذاكرا فى الغراميات وفى غضون حديثهما أنشد البهاء:

يا بان وادى الأجرع

وقال اشتهى أن يكمل هذا المطلع، ففكر ابن سعيد قليلا ثم قال:

سقيت غيث الأدمع

فقال البهاء: والله حسن ولكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول:

هل ملت من طرب معى[2]

فأنت ترى كيف جعل البهاء زهير الشطر الثانى من البيت ليس من جنس الشطر الأول، ثم لعلك لاحظت هذه الألفاظ الرقيقة اللينة التى تألف منها البيت بشطريه، وعلى هذا النحو سار شعراء مدرسة الرقة والسهولة فى العصر الأيوبى على نفس النحو الذى كان

(١) ابن حجة الحموى: خزانة الأدب ص ٨.

(٢) نفس المرجع السابق.

يسير عليه شعراء هذه المدرسة فى العصر الفاطمى، بل ازدادت رقتهم وسهولتهم حتى وهم بعض الباحثين إلى أن شعرهم هو شعر شعبى ملىء بالألفاظ العامية، والحقيقة أننا لا نجد لفظة عامية واحدة فى هذه المجموعة من الأشعار التى حفظت لنا عن هذا العصر ولكن سهولة ألفاظ الشعر جعلت الباحثين يتوهمون هذا الوهم ويدعون الشعبية فى شعر البهاء زهير وغير البهاء زهير. وشعراء هذه المدرسة تحدثوا فى جميع الموضوعات التى عرفها الشعر فها هو البرهان إبراهيم بن الفقيه المتوفى سنة ٦٤٠ هـ يقول:

والهف نفسى وواجدِّى وواحزانى ... ممن ألاطفه جهدى ويتعبنى
بذلت روحى فى أدنى تواصله ... ذلا وصبرا وعطفا وهو يهجرنى
وكلما رمت منه ما أهز به ... عطف السرور انزوى عنى وأحزننى
وكيف أطمع منه فى الوصال وقد ... أضحى وأمسى إزائى لا يكلمنى
يا من أحل دمى رفقا فقد فعلت ... ألحان عينيك فعل الصارم اليمنى
الله فى مهجة أتلفتها كمدا ... بادر بوصل وإلا ليس تدركنى
هذى حياتى وافت للوداع فقل ... مولاى ماذا به عيناك تأمرنى[1]

فلعلك تلاحظ كيف لانت ألفاظ هذه المقطوعة وسهلت، حتى كأن الشاعر إنما يتحدث حديثا عاديا بألفاظ اعتادها كل يوم، مع ما فى المقطوعة من موسيقى أتت من اختيار تلك الألفاظ اللينة واستعمالها هذا الاستعمال الفنى الخاص، ثم إننا لا نجد فى هذه المقطوعة من التلاعب اللفظى ما يدل على أن الشاعر أراد الصنعة فجرى الشعر سهلا بسيطا على هذا النحو. ومن هؤلاء الشعراء أمين الدين بن أبى الوفاء المشهور بابن العصار، وكان من شعراء الملك الكامل بن العادل، فهو يقول مثلا فى إحدى مقطوعاته:

أعندكم أن قلبى ... متيم مستهام
الصبر إلا عليكم ... فى كل حال حرام
لا أوحش الله منكم ... فقربكم ما يرام
يا سادتى مذ نأيتم ... لم يدن منى المنام
لا عيش لا عيش حتى ... تلوح تلك الخيام
إن طال ذا الهجر منكم ... على الحياة السلام[2]

(١) المغرب ص ٢٥٥.
(٢) المغرب ص ٢٧٧.

فى هذه المقطوعة ترى عاطفة الشاعر الرقيقة تنبعث من هذه الألفاظ السهلة الرقيقة، مما يجعل لها وقعا خاصا فى كل قلب كما تلذ لها الأذن لما فيها من موسيقى.

وقال هبة الله بن عرام:

يا لائمى فى غزال ... قلبى رهين يديه
لا تطمعن فى سلوى ... فلا سبيل إليه
كم لامنى فيه قوم ... وعنفونى عليه
حتى إذا أبصروه ... خروا سجودا لديه
فاحفظ فؤادك فالمو ... ت فى ظبى مقلتيه[1]

وهاهو الشاعر النفيس وهو أبو العباس أحمد بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٠٣ هـ. يقول فى مقطوعة له يمدح بها الأمير جلدك والى دمياط:

قل للحبيب أطلت صدك ... وجعلت قتلى فيك وكدك
إن شئت أن أسلو فرد ... على قلبى فهو عندك
أخلفت حتى فى زيا ... رتنا بطيف منك وعدك
وأنا عليك كما عهد ... ت وإن نقضت على عهدك
أحرقت يا ثغر الحبيب ... حشاى لما ذقت بردك
وشهدت أنى ظالم ... لما طلبت إليك شهدك
أنظن غصن البان يعـ ... ـجبنى وقد عاينت قدك
أم يخدع التفاح ألـ ... ـحاظى وقد شاهدت خدك
لا والذى جعل الهوى ... مولاى حتى صرت عبدك
يا قلب من لانت معا ... طفه علينا ما أشدك
أتظننى جلد الهوى ... أو أن لى عزمات جلدك[2]

لعل أهم ما يلفت النظر فى هذه المقطوعة رقة ألفاظها، وحسن التخلص إلى الغرض من القصيدة وهو مدح الأمير جلدك، فقد وفق الشاعر إلى ذلك توفيقا يدعو إلى الإعجاب بفنه.

---

(١) الخريدة جزء ٢ ص ١٦٩.

(٢) وفيات الأعيان: ابن خلكان ص ٥٢.

وأصحاب هذه المدرسة اتخذوا لأنفسهم المقطوعات القصيرة بدلا من القصائد الطويلة، لذلك نرى أكثر الشعر الأيوبى الذى قاله شعراء الرقة والسهولة من نوع المقطوعات، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنهم كانوا ينشدون لأنفسهم ولأصدقائهم فى مناسبة خاصة من المناسبات التى يريدون بها تسجيل عاطفتهم وشعورهم، فتركوا طريقة الشعر التقليدى القديم، أى هذا الشعر الذى كان ينشد للملوك والأمراء فى حفلات، أو فى البلاط ولهذا لم يجدوا ضرورة إلى أن ينشدوا المطولات واكتفوا بهذه المقطوعات، وأكبر دليل على ذلك أن الشاعر البهاء زهير كان من شعراء مدرسة الرقة والسهولة، ولكنه عندما كان يمدح، وكان مضطرا أحيانا إلى أن يتخذ الطريقة التقليدية القديمة، ويطيل فى قصائده، ويتخذ فى أكثر الأحيان التفاعيل الطويلة، وهنا تظهر شخصية الفنان المقلد الذى يختلف فى أكثر الأحوال عن شخصية الشاعر المطبوع الذى يصدر فنه عن وحيه وإلهامه لا عن تقليد وتصنع، فمن أمثلة قول البهاء فى الرقة هذه المقطوعة، وما أكثر مقطوعاته التى تدل على ما نريد.

أرى قوما بليت بهم ... نصيبى منهم نصيبى
فمنهم من ينافق لى ... فيحلف لى ويكذب بى
ويلزمنى بتصديق الـ ... ـذى قد قال من كذب
وذو عجب إذا حد ... ثت عنه جئت بالعجب
وما يدرى بحمد الله ... ما شعبان من رجب
وما أبصرت أحمق منـ ... ـه فى عجم ولا عرب
وأحمق قد شقيت به ... بلا عقل ولا أدب
فلا ينفك يتبعنى ... وإن أمعنت فى الهرب
كأنى قد قتلت له ... قتيلا فهو فى طلبى
لأمر ما صحبتهم ... فلا تسأل عن السبب
يحسب عقلنا أنّا ... نصيد الباز بالحرب
وكنا قد ظننا الصف ... ر عند النقد كالذهب
فلم نظفر بحاجتنا ... وأشفينا على العطب
رجعنا مثل ما رحنا ... ولم نربح سوى التعب[1]

(١) ديوان البهاء زهير ص ٢٢.

فلعل هذه المقطوعة التى تدخل فى باب الانسجام عند أصحاب البديع، تدلنا على مدى رقة هذا الشاعر، وسلاسته، وكيف سهلت تراكيبه، وعذبت ألفاظه، فالبهاء زهير أحد الذين عرفوا بهذا اللون من الشعر. عند القدماء وعند المحدثين، وأقرأ له مرة أخرى هذه المقطوعة:

تعيش أنت وتبقى ... أنا الذى مت عشقا
حاشاك يا نور عينى ... تلقى الذى أنا ألقى
قد كان ما كان منى ... والله خير وأبقى
ولم أجد بين موتى ... وبين هجرك فرقا
يا أنعم الناس قل لى ... إلى متى فيك أشقى
سمعت عنك حديثا ... يا رب لا كان صدقا
حاشاك تنقض عهدى ... وعروتى فيك وثقى
فما عهدتك إلا ... من أكرم الناس خلقا
يا ألف مولاى أهلا ... يا ألف مولاى رفقا
لك الحياة فإنى ... أموت لا شك عشقا
لم يبق منى إلا ... بقية ليس تبقى[1]

فهذه السهولة توهم القارىء لأول مرة أنه يستطيع أن يأتى بمثلها، ثم لا يلبث أن يراها ممتنعة، فهى نوع من الموسيقى العذبة، ومن الانسياب الطريف، والبساطة فى التعبير التى هى عندى عين الجمال الفنى، تلك البساطة التى وهم كثير من الباحثين فذهبوا إلى أنها شعبية.

البهاء زهير (٥٨١ إلى سنة ٦٥٦ هـ)

أبو الفضل زهير بن محمد بن على بن يحيى بن الحسن الأزدى المهلبى المعروف ببهاء الدين زهير.

ولد فى ٥ ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ فى وادى نخلة بالقرب من مكة فى أسرة عربية أصيلة، تنتسب إلى قبيلة الأزد، ويقال إنه من نسل المهلب بن أبى صفرة، ولذلك يعرف بالمهلبى، وبالرغم من هذا النسب الرفيع فإن البهاء زهير لم يذكر نسبته هذه فى شعره. ولم يصلنا

(١) نفس المرجع السابق ص ١٤٥.

شيء عن نشأته فى الحجاز إبان طفولته، ولا عن أسرته إلا أنه ترك الحجاز صغيرا إلى مصر فاستوطن مع أسرته مدينة قوص بصعيد مصر، ورحلته إلى مصر غامضة أشد الغموض فلم يتحدث أحد من المؤرخين عن سبب هجرة أسرته من الحجاز، ولم يحدثنا هو نفسه بشيء عن ذلك، فلم يرد فى ديوانه أية إشارة عن سبب هذه الهجرة ولا متى كانت. والباحثون الذين تحدثوا عن البهاء زهير يذكرون دائما أنه كان يحن إلى وطنه الأصلى بالحجاز. وأنه أنشد فى ذلك يقول:

أحن إلى عهد المحصب من منى ... وعيش به كانت ترف ظلاله
ويا حبذا أمواهه ونسيمه ... ويا حبذا حصباؤه ورماله
ويا أسفى إذ شط عنى مزاره ... ويا حزنى إذ غاب عنى غزاله
وكم لى بين المروتين لبابة ... وبدر تمام قد حوته حجاله
مقيم بقلبى حيث كنت حديثه ... وبادٍ لعينى حيث سرت خياله
واذكر أيام الحجاز وأننى ... كأنى صريع يعتريه خياله
ويا صاحبى بالخيف كن لى مسعدا ... إذا آن من بين الحجيج ارتحاله
وخذ جانب الوادى كذا عن يمينه ... بحيث القنا يهتز منه طوله
هناك ترى بيتا لزينب مشرقا ... إذا جئت لا يخفى عليك جلاله
فقل ناشدا بيتا ومن ذاق مثله ... لدى جيرة لم يدر كيف احتياله
وكن هكذا حتى تصادف فرصة ... تصيب بها ما رمته وتناله
فعرض بذكرى حيث تسمع زينب ... وقل ليس يخلو ساعة منك باله
عساها إذا ما مر ذكرى بسمعها ... تقول فلان عندكم كيف حاله[1]

وهم أيضا الذين يقولون إنه وفد على مصر صغيرا ونشأ بقوص. وهم أيضا الذين يقولون إنه ربى بقوص، فكيف نوفق بين هذا كله؟، أما المؤرخون[2] فيجمعون على أنه وفد على مصر صغيرا ونشأ وربى بقوص، إذن نستطيع أن نطمئن إلى أن البهاء زهير جاء إلى مصر وهو فى سن ليس الذى يجعل معه غراميات فى الحجاز ثم يتذكرها بعد سنين عديدة، والذى له إلمام بالأدب المصرى وخاصة فى أواخر العصر الفاطمى، وفى العصر الأيوبى

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٦٤.

(٢) اليونينى: ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ١٨٤ طبع حيدر آباد. العماد: الشذرات ج ٥ ص ٢٧٦، السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٧.

وما بعده يعلم تماما أن الشعراء فى غزلهم كانوا يحرصون على أن يذكروا بعض الأماكن والبلاد التى فى الحجاز، ولا سيما شعراء الصعيد، وقد ذكرنا من قبل أن قوص فى ذلك العصر كانت تعتبر ميناء الحجاز والبلاد العربية وإليها كان يفد الذين يقصدون الأراضى المقدسة للحج أو للتجارة، ومن ثم كان حديث الناس فى قوص وما حولها من بلاد الصعيد يدور حول الأماكن العديدة التى بالحجاز، وأظهر شعراء مصر فى أواخر العصر الفاطمى وما بعده من العصور هذا التقليد فى ذكر تلك البقاع فى أشعارهم، نرى ذلك عند ابنى الزبير فى العصر الفاطمى، وعند بنى عرام من شعراء الصعيد ثم نراه عند كثيرين من شعراء الأيوبيين حتى عند هؤلاء الذين لم يزوروا الصعيد ولا الأراضى المقدسة، وكانت هذه الظاهرة اللافتة فى العصر الأيوبى هى السبب الأول فى ظهور فن جديد فى الأدب العربى هو فن المدائح النبوية. إذن نستطيع أن نقول إن ذكر هذه البقاع فى تلك المقطوعة وفى غيرها من شعر البهاء زهير هو نفس التقليد الذى كان فى هذا العصر عند شعراء مصر، وليس هو من قبيل التشوق إلى بيئته الأولى، هذا إذا أخذنا بأقوال المؤرخين من أنه أتى مصر وهو صغير السن.

ويحدثنا المؤرخون أن البهاء بدأ حياته العملية فى مدينة قوص أيضا، إذ عمل كاتبا فى ديوان ابن اللمطى، وقد هنأ ابن اللمطى عندما تولى الأعمال القوصية سنة ٦٠٧ هـ بقوله:

تمليته يا لابس العز ملبسا ... وهنأته يا غارس الجود مغرسا
قدمت قدوم الغيث للأرض إنها ... به أشرقت حسنا وطابت تنفسا
علوت بنى الأيام إذ كنت فيهم ... إذا ذكروا أسمى وأسنا وأرأسا
زعيم بنى اللمطى فى البأس والندى ... مكرمها المأمول فى الدهر إن قسا
به أصبحت قوس إذا هى فاخرت ... أعز قبيل فى الأنام وأنفسا
أجل الورى قدرا وأكرم شيمة ... وأكثر معروفا وأكبر أنفسا
إذا بخس الجهال قدر فضيلة ... فليسوا بها بالجاهلين فيبخسا
هم القوم يلقون الخطوب إذا عرت ... بكل كمى فى الخطوب تمرسا
سما بك مجد الدين مجد ومحتد ... وعرض نهاه الدين أن يتدنسا
لقد شرفت منه الصعيد ولاية ... فأصبح واديه به قد تقدسا
بلاد بلقياك استقامت نجومها ... فصرن سعودا بعد ما كن نحسا

ستبندى وقد وافى وفاك ربوعها ... وإن عهدت مغبرة الجو يبسا
ورب قواف قد طويت برودها ... فلم أرض أن تغدو لغيرك ملبسا
سيرضيك منها ما يزيد على الرضا ... ويستعبد ابن العبد والمتلمسا
وهبنى أعطيت البلاغة كلها ... فما قدر مدحى فى علاك وما عسى[1]

وتعد هذه القصيدة أول مدح له، ولذلك نراه فيها شاعرا مقلدا فى صوره ومعانيه متخذا نفس المنهج التقليدى للمديح فهى تمثل طورا من أطوار حياته الفنية، هو ذلك الطور الذى يمر به كل فنان فى شبابه، واستمر البهاء زهير على صلته بابن اللمطى، ويظهر أنه اتصل فى ذلك الوقت بالشاعر ابن مطروح وتوطدت الصداقة بين الشاعرين تلك الصداقة التى استمرت طول حياتيهما، وفى هذا الطور مدح الملك العادل؛ أنشده قصيدة بقلعة دمشق سنة ٦١٢ هـ، كما أشاد بانتصار الملك الكامل فى موقعة دمياط سنة ٦١٨ هـ والتى فيها يقول:

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر ... وردت على أعقابها ملة الكفر
لك الله من مولى إذا جاد أوسطا ... فناهيك من عرف وناهيك من نكر
ومن أجله أضحى المقطم شامخا ... ينافس حتى طور سيناء فى القدر
تدين له الأملاك بالكره والرضا ... وتخدمه الأفلاك فى النهى والأمر
فيا ملكا سامى الملائك رفعة ... من الملأ الأعلى له أطيب الذكر
يهنيك ما أعطاك ربك إنها ... مواقف هن الغر فى موقف الحشر
وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها ... لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم يقم بالله حق جهاده ... لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همة كاملية ... لخافت رجال بالمقام وبالحجْر
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة ... ويثرب ينهيه إلى صاحب القبر
فقل لرسول الله: إن سميه ... حمى بيضة الإسلام من نُوَب الدهر
به ارتجعت دمياط قهرا من العدا ... وطهرها بالسيف والملة والطُهر
ورد على المحراب منها صلاته ... وكم بات مشتاقا إلى الشفع والوتر
وأقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكرى ... فلا حلمت إلا بأعلامه الصفر
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا ... تجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرو

(١) الديوان ص ١٠٥.

صبرت إلى أن أنزل الله نصره ... لذلك قد أحمدت عاقبة الصبر
وليلة غزو للعدو كأنها ... بكثرة من أرديته ليلة النحر
أساطيل ليست في أساطير من مضى ... بكل غراب راح أفتك من صقر
وباتت جنود الله فوق ضوامر ... بأوضاحها تغنى السراة عن الفجر
فلازلت حتى أيد الله حزبه ... وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر[1]

كذلك نقرأ له في ديوانه مدائحه في الأمير جلدك والملك المسعود صلاح الدين والملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل وغيرهم، ومعنى ذلك أنه لم ينقطع إلى الأمير مجد الدين بن اللمطي، بل اتصل بغيره من الملوك والأمراء يبيع لهم مدائحه ويتقرب إليهم وهو مع ذلك كله لم يزل يعمل في ديوان مجد الدين بن اللمطي، حتى حدث ما أغضب منه الأمير، فأخذ البهاء يعاتبه معتذرا حينا ويتوسل إليه متذللا حينا آخر، ثم نراه ينتقل إلى القاهرة ويعمل في ديوان الملك الصالح نجم الدين عندما كان ينوب في حكم مصر عن أبيه الملك الكامل – وقد ذكرنا شيئا عنه في حديثنا عن ابن مطروح – ظل البهاء زهير وفيا لمخدومه الملك الصالح، وظل مقيما بمدينة نابلس طوال المدة التي سجن فيها الملك الصالح بالكرك، وبعد عودة الصالح إلى مصر عاد البهاء زهير معه وأصبح رئيسا لديوان إنشائه ولقب بالصاحب أيضا بالرغم من أن هذا اللقب كان من ألقاب الوزراء، ولكن مرتبته كانت تضارع مرتبة الوزراء ولذلك لقب بهذا اللقب. ويظهر أن البهاء زهير قد أخلص الإخلاص كله للملك الصالح فوثق به وقربه إليه فصار البهاء أكثر الناس اختصاصا بالملك واجتماعا به، وسيره الملك سنة ٦٤٥ هـ رسولا إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يطلب منه إنفاذ الملك الصالح اسماعيل إليه، ويظهر أنه لم ينجح في سفارته فقد أغلظ الملك الناصر في جواب الرسالة، وعاد البهاء وأفضى بالجواب إلى الصالح الذي غضب ولكنه كتم غيظه في صدره، وظل البهاء معه إلى أن انتقل الصالح إلى المنصورة لحرب الصليبيين والبهاء معه، وهناك تغير الملك الصالح عليه وأبعده، وقيل إن سبب ذلك أنه كتب عن الملك الصالح كتابا إلى الملك الناصر داود، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر: أنت تعرف قلة عقل ابن عمي، وأنه يحب من يعظمه ويعطيه من يده، فاكتب له ما يعجبه من ذلك. وسير الكتاب إليه وهو مشغول، فأعطاه لفخر الدين ابراهيم بن لقمان وأمره بختمه، فختمه وجهزه ولم يقرأ ما كتبه الملك الصالح، وأعطاه

(١) الديوان ص ٧٢.

للنجاب فسافر به لوقته، ولما استبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ليعلم عليه سأل عنه بهاء الدين وقال: ما وقفت على ما كتبته بخطى بين الأسطر؟ قال: ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه. وأخبره أنه سيره مع النجاب، فسيروا فى طلبه فلم يدركوه، ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك، فعظم عليه وتألم له، وكتب إلى الملك الصالح يعتبه العتب المؤلم، ويقول له: والله ما بى ما يصدر منك فى حقى، وإنما بى اطلاع كتابك على مثل ذلك. فعز على الملك الصالح وغضب على بهاء الدين زهير، وهذا لمروءته نسب ذلك إلى نفسه ولم ينسبه إلى ابن لقمان[1].

ويشاء القدر أن يموت الملك الصالح بعد قليل، فاتصل البهاء بخدمة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب[2]، ثم فارقه إلى مصر، فلزم بيته واضطر لسوء حالته إلى أن يبيع كتبه لينفق من ثمنها، ولما انتشر فى البلاد الوباء العام مرض أياما ثم توفى يوم الأحد رابع ذى القعدة سنة ٦٥٦ هـ.

كان البهاء زهير أسود قصيرا شنجا[3] فكان يندب نفسه ويقصد إلى التشبيهات والتخيلات التى تلائم حالته حتى لا يسبقه إليها أحد معاصريه، ومن هنا كان اتجاه البهاء الفنى إلى السهولة حتى يعوض النقص الذى كان يشعر به نتيجة هيئته وتكاد تجمع المصادر القديمة التى بين أيدينا أن البهاء كان من مدرسة الرقة والسهولة، فالحموى يقول فى خزانته فى ذكر السهولة: «السهولة ذكرها التيفاشى مضافة إلى باب الظرافة، وشركها قوم بالانسجام، وذكرها ابن سنان الخفاجى فى كتاب سر الفصاحة فقال فى مجمل كلامه: هو خلوص اللفظ من التكلف والتعقيد والتعسف فى السبك. وقال التيفاشى: السهولة أن يأتى الشاعر بألفاظ سهلة تتميز على ما سواها عند من له أدنى ذوق من أهل الأدب وهى تدل على رقة الحاشية وحسن الطبع وسلامة الروية[4] إلى أن قال الحموى: ومذهبى أن البهاء زهير قائد عنان هذا النوع وفارس ميدانه»[5] هذا ما قاله بعض علماء البلاغة فى السهولة التى اتبعها البهاء ولم يذكر أحد من علماء البلاغة القدماء أن شعر البهاء كان شعبيا أو عاميا على نحو

(١) راجع هذه القصة فى ذيل مرآة الزمان لليونينى ج ١ ص ١٨٥ (طبع حيدر أباد).
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧.
(٣) الصفدى: الغيث ج ٢ ص ٣٤٢.
(٤) الحموى: خزانة الأدب ص ٤٥٤.
(٥) نفس المرجع السابق.

ما قاله بعض الباحثين المحدثين الذين ادعوا أن شعر البهاء كان شعبيا وأنه ملىء بالألفاظ العامية. ولا أدرى كيف رموا البهاء أو غيره من تلاميذ مدرسة الرقة بذلك. وقد ذكرنا كيف جمع فن البهاء زهير بين الشعر التقليدى عندما كان يمدح وبين فن أصحاب مدرسة الرقة والسهولة، مما لا يدعو إلى الإطالة فى هذا الحديث. وشعر البهاء صورة واضحة لثقافته كما هو صورة لبعض الاتجاهات التى كانت فى عصره، فترى فى شعره أثر هؤلاء الصوفية الذين انتشروا فى البلاد انتشارا كبيرا، فهو يقول مرة:

وإن يك أنفاسى خشيتم لهيبها ... وهالتكم نيران وجد بأحشائى
فكونوا رفاعيين فى الحب مرة ... وخوضوا لظى نار لشوقى حمراءِ

فهنا إشارة إلى فرقة الصوفية المنسوبة إلى الرفاعى، وقد عرف عن هذه الفرقة أنهم يبلعون قطع النار، ويتهكم مرة أخرى على الصوفية فيقول:

كم أناس أظهروا الزهد لنا ... فتجافوا عن حلال وحرام
قللوا الأكل وأبدوا ورعا ... واجتهادا فى صيام وقيام
ثم لما أمكنتهم فرصة ... أكلوا أكل الحزانى فى الظلام

أما ثقافته فيخيل إلى أنه كان ملما بكثير من الشعر القديم، فحينا كان يضمن قصائده أشطرا من الشعر القديم مثل قوله:

وأمسك نفسى عن لقائك كارها ... أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

فهذا الشطر الأخير هو مطلع قصيدة المتنبى المشهورة. وقال أيضا:

خليلى عوجا بى على الندب جلدك ... أقضى لبانات الفؤاد المعذب
فتى ماجد طابت مواهب كفه ... فلا تذكرن لى بعده أم جندب

فالأصل فى هذين البيتين قول امرىء القيس:

خليلى عوجا بى على أم جندب ... لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

وفى إحدى قصائده فى مدح النصير بن اللمطى يقول:

هذا زهيرك لا زهير مزينة ... وافاك لا هرما على علاته
دعه وحولياته ثم استمع ... لزهير عصرك بعض لياليه

لـو أنـشدت فـى آل جـفـنـة أعـرضـوا عـن ذكـر حـسـان وعـن جـفـنـاتـه

فهـذا كله يـدل على أن البهاء زهير كان ملما بأشـعار زهير بن أبى سـلمى فى هرم بن سـنان وبأشـعار حسـان بن ثابت، ومرة أخرى يذكـر ذا الرمة وكعـب بن الإيادى وحاتم الطائى فيقول:

وغـيـث سـمـعـت الـنـاس يـنـتـجـعـونـه فـأيـن يـرى غـيـلان مـنـه وصـيـدح

دعـوا ذكـر كـعـب فى الـسماح وحـاتـم فـلـيس بـعـد الـيـوم ذاك الـتـسـمح

ويحدثنا عن الفرزدق وجرير فيقول:

إذا ذكـرت فـى الـحـى أصـبح آيـسـا فـرزدقـهـا مـن وصـلـهـا وجـريـرهـا

ويذكر بثينة وجميل فيقول:

ومـا كـل مـخـضـوب الـبـنـان بـثـيـنـة ومـا كـل مـسـلـوب الـفـؤاد جـمـيـل

ويذكر النابغة والحطيئة بقوله:

لـو أنـهـا مـمـن تـقـدم عـصـره مـنـعـت زيـادا أن يـقـولا وجـرولا

ويضمن الشطر الثانى من بيت للمتنبى:

بـلـيت بـلـى الأطلال إن لـم أقـف بـهـا وقـوف شحيح ضاع فى الترب خـاتـمـه

فقال البهاء:

وقـفـت عـلـى مـا جاءنى من كـتـابـكـم وقوف شحيح ضاع فى الـترب خـاتـمـه

ثم انظر إلى هذه المقطوعة فهو يقول:

أنـا ذا زهـيـرك لـيـس إلا جـود كـفـك لـى مـزيـنـة

أهـوى جـمـيـل الـذكـر عـنـ ـك كـأنـمـا هـو لـى بـثـيـنـة

فـاسـأل ضـمـيـرك عـن ودا دى إنـه فـيـه جـهـيـنـة

هكـذا نرى فـى ديوان البهاء زهير ما يدل على تأثره بالشـعر العربـى القديم وببعض الأخبار التاريخية العربية. وتضمينه بما قاله القدماء دليل على أن البهاء كان يحفظ كثيرا من أشـعارهم، وأن مهارته الفنية جعلته يصطنع فى شـعره هذه الأجزاء من الشعر القديم، وكأنها فى موضعها الطبيعى من شـعره هو، وهذه مقدرة لا يسـتطيعها إلا كل من رسخت

قدمه فى الفن، فلا غرو أن البهاء كان من شعراء مصر الممتازين، ولا غرابة فى أن يعجب بـه كل من عاصـره وكل من جاء بعده، وللبهاء زهير تلاميذ أخذوا عنه طريقته وفنه نذكر منهـم عماد الدين الدينيسـرى الطبيـب، فقد صحب البهاء مدة، وتخـرج به فى الأدب والشـعر[1] بالرغم من أنه كان طبيبا وله مؤلفات فى هذا العلم منها المقالة المرشـدة فى درج الأدويـة المفردة، وأرجوزة فى الدريـاق الفاروقى، ونظم مقدمة المعرفة لبقراط الطبيب وغير ذلك، أما شعره فهو قليل، وهو ينحو نحو مدرسة السهولة فمن ذلك قوله:

عـشـقـت بـدرا مـليـحـا ... عـلـيـه فـى الـحـسـن هـالـة
مـثـل الـغـزال ولـكـن ... تـغـار مـنـه الـغـزالـة
فـقـلـت أنـت حـبـيـبـى ... ومـالـكـى لا مـحـالـة
جـسـمـى يـذوب وجـفـنـى ... دمـوعـه هـطـالـة
بـعـثـت مـن نـار وجـدى ... مـنـى إلـيـه رسـالـة
ولـى عـلـيـك شـهـود ... مـعـروفـة بـالـعـدالـة

وسـنرى فـى عصـر المماليـك تأثـر أكثـر الشـعراء بالبهـاء وبمعنـى آخر مدرسـة الرقة والسهولة.

ثالثا: شعراء مدرسة الكتاب: وهم هؤلاء الشعراء الذين كانوا على طرفى نقيض مع ما رأيناه من شعراء مدرسة الرقة والسهولة، إذ كانوا خاضعين لتأثير الاتجاهات الفنية التى شغف بها كتاب الدواوين فى العصر الفاطمى وملأوا بها كتاباتهم وأشعارهم. كان فنهم يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شىء، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السـمع مع حلاوة الإيقاع، كانوا يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعبا تظهر فيه أثر الصناعة وأثر التكلف، وأسـرفوا فى صناعتهم وتكلفهم إسرافا يدل على طول باعهم فى هذا الفن، وعلى تلك الثـروة اللفظية التى كانوا يتحلون بها ويصطنعونها فى مهارة ليس بعدها مهارة. وكانوا يحلون فنهـم بالزينة البديعية من جناس وتطبيـق وتورية ومراعاة النظير إلى غير ذلك من ألوان البديع والبيان حتى بهروا البلاغيين بمقدرتهم على اسـتعمال هذه المحسنات اللفظية، وكثيرا ما كان يحلـو لهم اسـتعمال الألفاظ المترادفة أو ما يشـتق من اللفظ الواحـد فى الجملة الواحدة أو فى

(١) راجع ابن شاكر: فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢١.

البيت الواحـد. كل هذه الزينة وهذا التلاعب لون من ألوان التعسـف الفنى الذى ألزم الكتاب والشـعراء الذين يتبعون هذه المدرسـة به أنفسهم فظهر فى فنهم هذا التكلف المصنوع الذى يبعد كل البعـد عـن الطبع، ويبعد عن تلك الرقة التى يمتاز بها المصريون فى فنونهم، هذه الصناعة نراها فى شعر القاضى الموفق بن الخلال، وابن أبى الشخباء، والقاضى الجليس، وابنى الزبير، وعمـارة اليمنـى، وغيرهم من شـعراء دواوين الفاطميين[1]. وعرف عن هؤلاء الكتاب والشـعراء مذهبهم وشاع بين كل أديب يطمح فى العمل بالدواوين أو يريد الاتصال بالأمراء والوزراء فأصبح مذهبهم الفنى بدعة العصر وتقليدا يسير عليه الشعراء والكتاب.

ومن الطبيعى أن يستمر مذهب شعراء هذه المدرسة فى العصر الأيوبى ويخضع الفنانون ولا سـيما الكتاب الخضوع كله لهذه الطريقة التقليدية ولا سـيما أن الحاكم الفعلى للبلاد، والمدبر الأول لشـئونها فى النصف الثانى من القرن السـادس للهجرة هو رجل قضى وقتا طويلا يتدرب على هذا الفن فى دواوين الفاطميين ويأخذ عن الكتاب الفاطميين وشـعرائهم مذهبهـم الفنى، فنشـأ مولعا بهذا المذهب، داعيا له، بـل غلا فى هذا المذهب غلوا جعل المؤرخين والنقاد ينسـبون إليه هذا المذهب الفنى وتلـك الطريقة التقليدية، هذا الرجل هو القاضى الفاضل. وعندى أن نسـبة المذهب إليه لون من ألوان التعسـف فى الحكم النقدى والتاريخى، فلو لم يكن القاضى الفاضل وزير مصر الأول فى الأيام الصلاحية، ولو لم يكن هو صاحب السلطان الفعلى فى البلاد ما كان المؤرخون والنقاد يشيدون بفنه على هذا النحو الذى نجده فى كتب معاصريه أو فى الكتب التى نقلت عن معاصريه، فالحقيقة التاريخية تقول إنه لم يبتدع هذه الطريقة التى نسـبت إليه بل كان مقلدا لمن سـبقه، ولكن شخصيته هى التى جعلت كاتبا مؤرخا وهو العماد الأصفهانى يشيد به، ويغلو فى تقريظه ومدحه[2]. ولم يكن ذلك كله إلا لأن القاضى الفاضل كان سببا فى اتصال العماد بالسلاطين الأيوبيين ولو لم يكن القاضى الفاضل فى هذه المرتبة العليا ما كان هؤلاء الشـعراء الذين التفوا حوله مدحوه بهذه المدائح التى نراها فى كتب التاريخ والأدب. إذ كان جل الشـعراء فى عصره قد أكثروا من مديحه تقربا وتزلفا إلى هذا الرجل صاحب السلطان. نحن لا ننكر أن الفاضل كان فنانا من بعض النواحى ولكن موهبته الفنية لم تكن أهلا لكل ما قيل عنه، ولا سـيما

(١) راجع ما كتبناه من ذلك فى كتاب أدب مصر الفاطمية

(٢) راجع ما كتبه العماد فى الخريدة الجزء الأول.

أن فنــه كما رأينــا كان فنا مصنوعا متكلفا قد يلذ الأذن ولكنه لا يرضى العاطفة. وكثيرا ما كان الشــعراء الذين ساروا على نهجه يعودون إلى أنفسهم ويخرجون على منهجه، ويغلب عليهم طبعهم. فالأسعد بن مماتى مثلا لم يكن يميل إلى الجناس ولم يتخذه مذهبا فى نظمه فهو الذى يقول:

طبع المجنس فيـه نوع قـيادة أو مـا تـرى تأليفه للأحـرف[1]

وابن ســناء الملك غلب عليه فن الموشح الشــعبى، والقاضى الفاضل نفسه كان يشذ عن منهجــه الفنــى، ذلك كله بالرغم من قــول العماد الأصفهانى إن مذهــب القاضى الفاضل «كالشــريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع»[2]. وتحدث عن إحدى الرســائل التــى كتبها إلى الفاضل فيقول: «وهذه الرســالة قد وفيتهــا حقها من التجنيس والتطبيــق والترصيع والمقابلة والموازنة والتوشــيع»[3] فهذا النص تصريح من العماد بالتزامه هــذه الألــوان المختلفة من البديع فى فنه وهى التى تبع فيها الطريقة التى سماها بالطريقة الفاضلية نستطيع أن نتخذه دليلا على المنهج الفنى الذى سار عليه هو والجماعة الفاضلية أو بمعنى آخر الشــعراء الذين التفوا حول الفاضل وهم الذين نطلق عليهم مدرســة الكتاب. ويقول ابن حجة الحموى:

«وأما التورية والاســتخدام فما تنبه لمحاســنهما وتيقظ وتحرى وتحرر إلا من تأخر من الشــعراء والكتاب وتطلع من العلوم وتضلــع من كل باب، وأظن أن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى هو الذى ذلل منهما الصعاب وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب حتى ارتشف هذه الســلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصر وخفقت رياحهم بالإخلاص فى نصره كالقاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك ومن انخرط معه فى هذا السلك، ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج فى ذلك الأوان، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحســان إلى أن جاء بعدهم حلبة أخرى»[4].

وبالرغم من ذلك كله فإن مدرســة الرقة والســهولة تقابلت مع مدرسة الكتاب وامتزجتا امتزاجا لافتا عند كثير من الشعراء الذين جمعوا بين المذهبين، فنجد فى شعر ابن المرصص،

(١) الحموى خزانة الأدب ص ٢١.

(٢) العماد. الخريدة ج ١ ص ٣٦.

(٣) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٤٤.

(٤) خزانة الأدب ص ٥١.

وابن عرام وابن ظافر والأسعد ابن مماتى ما يجعلنا نقول إن تطورا جديدا قد ظهر فى الشعر فى هذا العصر هذا التطور هو نتيجة لتغلب الطبع مع الميل إلى الزخرف اللفظى وكان هذا التطور مصدرا لما نراه عند شعراء أواخر العصر الأيوبى وأوائل العصر المملوكى من فن جديد نراه عند الجزار، والحمامى، والسراج، وغيرهم من الشعراء.

القاضى الفاضل (٥٢٩ - ٥٩٦ هـ)

أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن اللخمى الملقب بمجير الدين[١] ويقال محيى الدين[٢] المعروف بالقاضى الفاضل، ولد بعسقلان سنة ٥٢٩ هـ. وكان أبوه متولى القضاء على مدينة بيسان من قبل الفاطميين مدة طويلة فنسب إليها ولقب بالبيسانى ولذلك أطلق على القاضى الفاضل «ابن البيسانى». نشأ القاضى الفاضل بعسقلان وبها تلقى علومه، وظهرت ميوله الأدبية منذ صغره فشاء والده أن ينشئ ابنه على نحو ما كان يفعله أرباب الدواوين وكبار رجال الدولة فى العصر الفاطمى، إذ كانوا يرسلون أبناءهم إلى الدواوين الفاطمية ليتدربوا على فن الكتابة ويأخذوا عن شيوخ هذه الدواوين فنونهم الإنشائية ويقول الفاضل نفسه: كان فن الكتابة بمصر فى زمن الدولة العلوية غضا طريا، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا، وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشيئا شيئا من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع أشياء من علم الأدب[٣]. لذلك وفد القاضى الفاضل إلى مصر فى سن الشباب ليتلقى عن المصريين فنونهم وآدابهم، وتختلف روايات المؤرخين فى سنة وفوده، فابن خلكان يروى عن ابن الأثير عن القاضى الفاضل نفسه أنه قال.. أرسلنى والدى وكان إذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ[٤].

وينقل ابن خلكان أيضا رواية أخرى فقال: وبعد أن نقلت ما قاله ضياء الدين بن الأثير على هذه الصورة، اجتمع بى من له عناية بالأدب خصوصا بهذا الفن وهو من أعرف الناس بأحوال القاضى الفاضل وقال لى هذا الذى ذكره ابن الأثير مما يمكن تصحيحه ولعله قد غلط

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٨.
(٢) ابن العماد شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٢٤.
(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٨.
(٤) نفس المصدر السابق.

فى النقل فإن القاضى الفاضل لم يدخل الديار المصرية إلا فى أيام الظافر بن الحافظ[1].

ويروى ابن خلكان رواية ثالثة فيقول: ثم إنى وجدت فى بعض تعاليقى بخطى، وما أدرى من أين نقلته، أن القاضى الأشرف (والد القاضى الفاضل) كان من أهل عسقلان، وكان ينوب فى الحكم والنظر بمدينة بيسان، فدخل إلى مصر فى زمان الظافر بن الحافظ لكلام جرى بينه وبين والى الناحية، واستدعى الوالى إلى مصر، وطولب بمال طائل فاحتمى ببعض أمراء الدولة وجعلوا الأقاويل فى حق القاضى الأشرف، فاستدعى وصودرت أمواله إلى أن لم يبق له شىء، ولم يكن معه من الأولاد سوى القاضى الفاضل، فحمل على قلبه إلى أن توفى بالقاهرة ليلة الأحد حادى عشر ربيع الأول من سنة ست وأربعين وخمسمائة للهجرة ودفن بسفح المقطم[2].

فواضح من هذه الروايات ما بها من اختلاف، فلم تحدد الرواية الأولى ولا الثانية سنة دخول القاضى الفاضل إلى مصر، وبالرواية الثالثة إشارة إلى أنه دخلها مع أبيه الذى صودرت أمواله وحمل على قلبه إلى أن مات سنة ٥٤٦ هـ، وكان ذلك فى خلافة الظافر بن الحافظ، واختلفت الرواية الأولى عن الروايتين الأخيرتين فى سبب قدوم الفاضل إلى مصر، ففى الأولى عن الروايتين الأخيرتين فى سبب قدوم الفاضل إلى مصر، ففى الأولى أنه وفد على مصر ليتعلم ويتدرب فى ديوان المكاتبات، وفى الأخيرتين كان السبب لأمر يتعلق بأموال قيل إن أباه اغتصبها، ولكننا نستطيع أن نوفق بين هذه الروايات بالرغم من اضطرابها ونقول إن كل هذه الروايات صحيحة، فقد جاء الفاضل إلى مصر لأول مرة فى أواخر حكم الحافظ الفاطمى بعد أن تولى الموفق بن الخلال رياسة ديوان الإنشاء والقاضى الفاضل نفسه يعترف بذلك فيقول: وأمرنى (أى والده) بالمسير إلى ديوان المكاتبات وكان الذى ترأس به فى تلك الأيام رجل يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان، ومثلت بين يديه، وعرفته من أنا وما طلبتى، رحب بى وسهل، ثم قال لى: ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال: فى هذا بلاغ. ثم أمرنى بملازمته، فلما ترددت إليه وتدربت بين يديه أمرنى بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية فحللته[3].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

فالنص صريح فى أن الفاضل جاء مصر ليتدرب ويتعلم، وأن رئيس ديوان المكاتبات إذ كان الموفق ابن الخلال الذى رأس الديوان فى أواخر عهد الحافظ الفاطمى واستمر رئيسا لهذا الديوان حتى عهد العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وكان القاضى الفاضل يتردد على أبيه ووفد معه حينما حمل فى محنته التى توفى بسببها، وهذه المحنة كانت سببا فى غضب الفاضل وسخطه فنراه يلجأ إلى قاضى الإسكندرية ابن أبى حديد ويفضى إليه بجملة أمره ومحنة أبيه، فعطف ابن أبى حديد عليه وألحقه كاتبا بديوانه بعد أن علم منه أنه تدرب فى ديوان الرسائل بين يدى ابن الخلال، وظل الفاضل بالإسكندرية حتى عرف بين كتاب القاهرة بمهارته فى فن الكتابة واشتهر أمره إلى بينهم، ويقال إن بعض كتاب القاهرة أرادوا أن يسعوا به إلى الخليفة الظافر، وطعنوا فى قدرته الفنية بأن رموه بالتقصير فى الكتابة ولكن القاضى ابن الزبير دافع عنه.

ومهما يكن من شىء فإن القاضى الفاضل ظل يكتب لابن أبى حديد بالإسكندرية حتى استدعى للعمل بديوان الإنشاء بمصر، ويقول عمارة اليمنى فى حديثه عن الملك العادل بن رزيك وزير الخليفة العاضد الفاطمى، «ومن محاسن أيامه، وما يؤرخ عنها بل الحسنة التى لا توازى، واليد البيضاء التى لا تجازى خروج أمره إلى والى الإسكندرية بتسيير القاضى الأجل الفاضل أبى على عبد الرحيم بن على البيسانى إلى الباب، واستخدامه فى حضرته وبين يديه فى ديوان الإنشاء[1].

ونحن نعلم أن العادل ولى الوزارة من سنة ٥٤٨ هـ حتى سنة ٥٥٠ هـ ففى هذه المدة عين القاضى الفاضل كاتبا بديوان الإنشاء مع أستاذه السابق ابن الخلال رئيس الديوان، ويخيل إلى أن حسد زملائه الكتاب الآخرين له ازداد وهم الذين رأيناهم يحقدون عليه ويحسدونه لأنهم لم يبلغوا ما بلغه هو فى فن الكتابة، شأنهم فى ذلك شأن ما يكون دائما بين أرباب المهنة الواحدة والعمل الواحد، وأنهم اتخذوا من خلقة القاضى الفاضل المشوهة مجالا لنكاتهم ونوادرهم، فقد كان الفاضل أحدب وقصيرا وهو الذى كان يقول عن نفسه وقد دخل حماما ذا قبة:

ما كان يكمل حر ذا الحمـ ـام حتى ازداد قبه
فكأننى فيه خرو ف شوا ومن فوقى مكبه[2]

(١) عمارة اليمنى: النكت ص ٥٣.

(٢) الصفدى: الغيث ج ٢ ص ٣٤٢.

ويقول شاعر آخر، قيل إنه ابن سناء الملك، ولكنى أستبعد أن ابن سناء الملك يقول هذه المقطوعة فى ولى نعمته وأستاذه القاضى الفاضل:

حاشا لعبد الرحيم سيدنا الـ ... فاضل ما تقوله السفل
يكذب من قال إن حدبته ... فى ظهره من عبيده حبل
هذا قياس فى غير سيدنا ... يصح لو كان يحبل الرجل[1]

فهذا التهكم المرير مثل لما كان يقال عن الفاضل، وكم كنا نود أن تحفظ هذه النكات والنوادر التى قالها المصريون فى القاضى الفاضل لما لها من دلالة عن فن الفكاهة والهجاء فى هذا العصر ولا سيما بين المتنافسين والحساد من كبار رجال الدولة، ولكن المؤرخين يسكتون دائما عن ذكر كل ما يقال فى ذلك، فهم لم يذكروا لنا المقطوعات التى قيلت فى أنف الجليس ابن الحباب، ولم ينقلوا كل ما قيل فى سواد بشرة بن الزبير، وهاهم يسكتون أيضا عما قيل فى الفاضل الذى ابتلى بمرضين قبح الخلقة ومرض الجسم.

«فكان جامعا بين مرضى قلب وجسد ووجع أطراف وعليل كبد»[2] كل ذلك يجعلنى أذهب إلى القول بأنه لم يسلم من نكات وفكاهات المصريين ولا سيما بعد أن أصبح له الأمر فى البلاد، والمعروف عن المصريين منذ أقدم عصورهم أنهم لا يحبون رؤساءهم وأنهم يتندرون بالرؤساء دائما فما بالك إذا كان لهم رئيس فى خلقة القاضى الفاضل المشوهة!! ويظهر أن الفاضل كان يحاول أن يخفف من منظر تشويه جسده بأن كان يستر حدبته بالطيلسان حتى لا تظهر للناس[3]، وكان لا يسمح أن يذكر فى حضرته أى معنى من معانى الاعوجاج والانحناء، ويقال إن أسعد بن مماتى دخل عليه يوما فوجد بين يديه أُتْرُجَّة كبيرة مفرطة فى الضخامة، فلما جلس حدق إليها وحدث تفكير وذهول، فأخذ الفاضل يتبادر على نفسه وقال: يا مولاى الأسعد! ما هذه الفكرة الطويلة؟ ما أنت مفكر إلا فى خلق هذه الأترجة وما فيها من التكتيل والتعوج، وتعجب من المناسبة لها وكيف اتفق الجمع بيننا وبينها. فدهش ابن مماتى، وانخلع قلبه منه خوفا، ثم رجع إليه خاطره فقال: لا والله، بل أفكر فى معنى وقع لى فيها ويسر الله أن نظمت فيها.

(١) ابن العماد: الشذرات ج ٤ ص ٣٢٧.
(٢) أبو المحاسن: النجوم ج ٦ ص ١٢٨.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٧٥.

لله بــــل للحســـن أتــرجـــة تـذكـر الـنـاس بـأمـر الـنـعـيم

كـأنـهـا قــد جـمـعـت نفسها من هيبة الفاضل عبد الرحيم[1]

فهــذه القصة إن دلت على شـــىء فإنما تدل على مدى شـعور القاضى الفاضل بمركب النقص من تكوين جســده، وربما كانت هذه الحالة النفســية ســببا فى أن يذهب القاضى الفاضل فى فنه الأدبى إلى هذا النحو الذى رأيناه من شــدة الميل إلى الزخرف والزينة كما كانت سببا فيما عرف عنه من حدة الطبع.

ظل الفاضل يعمل فى ديوان الإنشاء الفاطمى بين منافسيه وحساده، وخرجت سجلات عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين من إنشــاء الفاضل، ولما تولى أســد الدين شيركوه الوزارة بمصر طلب من الديوان كتابا يحرر له رســائله فــكان من الطبيعى أن يعمل رجال الديوان علــى التخلــص من ذلك الكاتب الذى فرض عليهم من قبل ونافســهم فى فنهم حتى ظهر عليهم، لهذا أرسلوا القاضى الفاضل ليكون كاتبا للوزير الجديد حتى يبتعد عن ميدانهم[2]، وقد سر الفاضل لذلك، كما إن الوزير أعجبه نفاده وسمته ونصحه[3] ولما تملك صلاح الدين اســتخلصه لنفسه لحسن اعتقاده فيه ولما أظهره الفاضل من صدق النصيحة وحسن التدبير حتى قيل إن صلاح الدين قال «ما فتحت البلاد بالعساكر إنما فتحتها بكلام الفاضل[4]».

فمهما كانت المبالغة شديدة فى هذا القول فإنه يدلنا على مقدار ما كان يكنه صلاح الدين مــن اعتزاز برأى الفاضل وفنه حتى أصبح الفاضل هو المدبر الأول للبلاد وحاكمها الفعلى، ويغلــب على الظن أن ما قام به القاضى الفاضــل من تدبيرات للقضاء على الدولة الفاطمية إنما كان من قبيل الانتقام لما حدث لأبيه ولما قاســاه هو من رجال الدواوين، فهو لم ينس أن الفاطميــين صــادروا أموال أبيه وعذبوه حتى مات، ولم ينــس هجاء الكتاب وأصحاب الدواوين له وتندرهم به ومحاولتهم الإيقاع به، وكيف صبر على ذلك كله حتى واتته فرصة الانتقــام فلم يتردد فى انتهازهــا، وكان انتقاما رهيبا حقا بالرغم مما عرف عنه من أنه لم يكن يحب الانتقام من أحد.

بلغ القاضى الفاضل فى عهد صلاح الدين وابنه العزيز ما لم يبلغه أحد من قبل، إذ كان المستشــار الأول لصلاح الدين فى سياســته الداخلية فى البلاد التى أخضعها لســلطانه،

---

(١) الصفدى: الغيث ج ٢ ص ٣٤٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٥٩.

(٣) ابن العماد: الشذرات ج ٣ ص ٣٢٥.

(٤) ابن العماد: الشذرات ج ٤ ص ٣٢٥.

وفى سياسته الخارجية مع الدول الأخرى وقد أخلص فى عمله الإخلاص كله حتى أجمع المؤرخون على أنه كان غيورا على مصلحة مولاه صلاح الدين، وعلى مصلحة الشعب نفسه. كان يعمل جهده لإعلاء كلمة المسلمين ورفع شأنهم أمام الصليبيين المغتصبين. ولا غرو فى ذلك، فقد ولد ونشأ بفلسطين مجاورا للإمارات الصليبية وعاش بالقرب من هؤلاء المستعمرين الأوربيين، وشاهد عن كثب ما قاساه المسلمون على أيدى الطغاة، فشعر بآلام إخوانه فى العروبة والدين وهو الرجل الذى عرف بدقة إحساسه ورقة شعوره، فأخذ يفكر كيف يخلص المعذبين مما هم فيه، ودبر لصلاح الدين سبيل الانتصار؛ فكان والحق يقال رشيدا فى كل نصائحه التى بعث بها إلى السلطان ولا تزال أكثر هذه النصائح محفوظا فى رسائله التى وصلتنا، مما جعلنى أعد رسائله وثائق تاريخية عن هذا العصر بالرغم من أن أكثر المؤرخين لم يأبهوا بها زعما بأنها من اختصاص مؤرخى الآداب!!! فهذه الرسائل كانت أقوى سببا فى أن يجد صلاح الدين فى حروبه، وفى تحمل أعباء الجهاد والصبر عليها بعد أن وثق من أن بلاده فى يد رجل أمين مخلص. فلا غرابة بعد ذلك أن نقرأ ما قاله صلاح الدين من أنه فتح البلاد بكلام القاضى الفاضل ونصائحه.

على أن هذا الناصح الأمين للدولة رأى اختلاف أبناء وإخوة صلاح الدين فيما بينهم على تملك البلاد، وتوقع الشر والفساد من فرقتهم وتشتت كلمتهم، فقد هدم كل ما بناه صلاح الدين وما أشار به القاضى الفاضل، فحاول أن يصلح بين المتنافسين المتحاربين ولكن يظهر أن تيار الخلف كان قويا جارفا، فاضطر القاضى الفاضل إلى أن يعتزل الناس، وأن يعكف فى داره على الصلاة وقراءة القرآن، وكان أخشى ما يخشاه الفاضل أن يتولى الملك العادل شئون مصر، لهذا كان يتمنى الموت قبل أن يتولى العادل، وقد استجاب الله له، فتوفى فى نفس اليوم الذى دخل العادل فيه باب القاهرة حتى قيل إن العادل كان داخلا من باب النصر، وجنازة الفاضل خارجة من باب زويلة[1] وذلك فى سنة ٥٩٦ هـ.

كان الفاضل شيخا من شيوخ الكتابة وعمالقتهم فى الأدب العربى، فشهرته فى فن الترسل كانت حديث رجال البلاغة العربية بل حديث كل من تعرض للعصر الأيوبى، ذلك بالرغم مما عرف عنه أنه كان خفيف البضاعة من النحو لا عريا منه، لكن قوة الدربة توجب له عدم اللحن، وكتب ما لم يكتبه أحد قبله ولا بعده[2] فكل الذين تحدثوا عن فن النثر أشادوا بالقاضى الفاضل فكان من حقه علينا أن لا ندخله مع شعراء عصره لقصوره

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٥٧.

(٢).ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٢٥.

عن اللحاق بهم فى مضمار فنهم، ولكن ما حيلتنا إن كان القدماء من البلاغيين جعلوا له مذهبا سار على نهجه الشعراء الذين كانوا حوله على نحو ما ذكرنا من قبل، عرف القاضى الفاضل بمهارته فى فن الكتابة دون فن الشعر، فإنا نجد له قصائد ومقطوعات تظهر تكلفه وبعده عن الطبع، فحرصه على التلاعب بالزينة البديعية كان أكثر من حرصه على تصوير عواطفه وأهوائه، فإذا بشعره يلذ السمع ويطرب الأذن، لما فيه من موسيقى، ولكنه لا يحرك المشاعر ولا يؤثر فى النفس، فإذا قرأنا له هذه الأبيات فى النسيب لا نجد فيها حرارة عاطفة الحبيب إنما نقرأ شيئا لا غناء فيه.

ويأمرنى من لا أطيق بهجرها ... وحسبى به لو كان ينظرها حسبى
يشير على جسمى بفرقة قلبه ... بقيت كذا، هل كان جسم بلا قلب
وإنى على الأيام فيها لعاتب ... وحاشى لذاك الوجه من ألم العتب[1]

ونقرأ له مقطوعة أخرى يصف فيها مهارته البلاغية فى الترسل

ولى قلم منه عين الكلا ... م تجرى فتنظر عين الكمال
يراع تظل رياض السطرو ... س منها موشحة بالصلال
وكتب يفيض بأرجائها ... يمين الجدا ولسان الجدال
تقدمها الشكل من فوقها ... كمثل السهام أمام النصال
وكم بريت وانبرت للعدو ... كوثب الشرار وهد الجبال
وكم قد كسبن عوادى ظبا ... وكم قد سلبن عوارى عوالى
يكلل أفلاك قرطاسها ... شموس شوامس عند الزوال[2]

فلا نجد فيها سوى هذا التكلف البغيض والصناعة اللفظية التى يتعسف الشاعر فيها، ومع ذلك كله فإنا نرى له بعض مقطوعات لا نشك فى صدورها من فنان ماهر فى صناعة الشعر، فمن ذلك هذه الأبيات التى يستشهد بها البلاغيون فى التورية:

بالله قل للنيل عنى إننى ... لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فإنه لى شاهد ... إن كان طرفى بالبكاء بخيلا
يا قلب كم خلفت ثم بثينة ... وأظن صبرك أن يكون جميلا[3]

(١) ديوان القاضى الفاضل.
(٢) نفس المرجع السابق.
(٣) الحموى: خزانة الأدب ص ٢٤٣.

أو قوله فى مدح الوزير شجاع وزير الفاطميين:

أنت الحياة التى ما بعدها رغب ... أو الحمام الذى ما قبله رهب
أما ومنك على أعدائك الطلب ... فإن أعدى عدو عندنا الهرب
فليس يعصمهم فى الفلك ما ركبوا ... وليس ينجيهم فى الأرض ما ضربوا
فلا يعلهم سرج ولا قتب ... ولا يظلهم بيت ولا طنب
من كان مضطربا فى فضل طاعتكم ... فما له فى بلاد الله مضطرب
وقائل وثب الأعداء! قلت: نعم ... كما الفراش على نيرانها تثب
لا يعجب الناس لما أوقدوا فتنا ... فالبغى نار ومذكيها لها حطب
وكم ضربت بسيف ماله قرب ... كما زحفت بجيش ماله لجب

وهكذا كان الفاضل فى بعض مقطوعاته شاعرا ولكنه لم يبلغ فى الشعر ما بلغه فى النثر بيد أنى أريد أن أشير هنا إلى ناحية من فن الفاضل فطن لها القدماء من النقاد، وهى ناحية إسرافه الشديد فى المبالغة التى ظهرت فى شعره وفى نثره، وأن من كان حوله من الشعراء اقتدوا به وساروا على نهجه، وما قاله النقاد فى ذلك حق لامرية فيه، غير أنى أقول إن المبالغة فى القول ليست جديدة على مصر والمصريين، بل هى من أخص خصائص الشخصية المصرية فى كل عصورها، فنحن نجد هذه المبالغة فى الشعر المصرى وفى الكتابة المصرية فى جميع العصور، وإلى الآن نرى المثل العامى «يعمل من الحبة قبة» دليلا واضحا على ما وصلت إليه المبالغة المصرية وتغلغلها عند المصريين جميعا، وربما أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن المصرى مبالغ فى كل شىء، فهو يغالى فى مسكنه وملبسه، ويبالغ فى أفراحه وأحزانه، ويسرف فى آماله وتشاؤمه، وحياتنا الاجتماعية فى مظاهرها المختلفة واضحة أمام أعيننا نستطيع أن نتعرف منها هذا الغلو فى كل شىء. فإذا كان القاضى الفاضل قد بالغ فى نثره وشعره فهو لم يأت بشىء جديد على مصر، إنما كان يعبر عن طبيعة الحياة المصرية كما عبر عنها غيره من الشعراء والكتاب الذين أسرفوا فى المبالغة أيضا.

ويحاول بعض الباحثين المحدثين أن يعزو التعقيد فى شعر القاضى الفاضل وشدة ولعه بالزينة اللفظية إلى أنه نشأ فى بلد غير مصر، ولكننا ذكرنا من قبل إن ما ذهب إليه القاضى الفاضل إنما أخذ عن الفن المصرى الذى كان قبل الفاضل، وأنه كان تلميذا للمصريين فيما ذهب إليه.

ومهما يكن من شيء فإن القاضى الفاضل أقلع عن قول الشعر فى آخر أيامه، ورفض أن يستمع إلى الشعراء الذين حملوا إليه مدائحهم، وهم الذين طالما مدحوه قبل أن يعتزل الحياة العامة، واستمع إلى أشعارهم، وربما وجه إلى بعضها نقده. ويطول بى الأمر لو تحدثت عن هذه المدائح التى قيلت فيه، فكل شعراء عصره أنشدوا فى مديحه والإشادة بخلقه وفضله، بالرغم من وجود الذين هجوه أمثال ابن عنين والوهرانى الكاتب الذى رفض الفاضل أن يستخدمه فى الديوان فأكثر من الكتابة فى هجائه فى رسائله المشهورة[1].

الأسعد بن مماتى (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ)

الأسعد شرف الدين أبو المكارم بن الخطير أبى سعيد المهذب بن مينا بن زكريا بن أبى قدامة بن أبى مليح[2] فهو على هذا النحو سليل أسرة قبطية الأصل من مدينة أسيوط ولقبت الأسرة ببنى مماتى لأنه وقع فى مصر غلاء عظيم فى زمن أبى مليح وكان رجلا كثير الصدقة على الفقراء فكانوا إذا رأوه نادى كل واخد منهم مماتى فاشتهر بذلك بين المصريين وأصبح هذا اللقب على أسرته كلها، ويحدثنا الإدفوى فى كتابه البدر السافر[3] أن أبا مليح مماتى هذا كان اسمه مينا بن أبى زكريا بن أبى قدامة على خلاف ما رواه ابن خلكان ويضيف الإدفوى أنه كان جوهريا بمصر يصبغ البللور صبغة الياقوت فلا يميز بينهما إلا الخبير بالجواهر[4]، ويظهر أن أبا مليح استطاع أن يتصل برجالات مصر فى عصر المستنصر الفاطمى، وأن يتولى بعض الدواوين بل ذهب ياقوت إلى القول: «وكان إلى مماتى كثير من الأعمال»[5] واستطاع أن يجمع مالا جما ويمتلك إقطاعات واسعة وكان مسرفا فى الإنفاق ويروى عنه أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ومعه سمكة مصنوعة من عنبر أحكم صنعها ورصعت بالجواهر فعرضها على الوزير بدر الجمالى ليبيعها منه فطلب ثمنا لا ينقص عن ألف دينار، فأعيدت إلى التاجر فخرج بها من دار الوزير فرآه أبو المليح مماتى فأخذها منه بألف دينار، واتفق أن شرب أبو مليح يوما حتى سكر وقال لندمائه «قد اشتهيت سمكا يقلى بحضرتنا» فجىء له بمقلى حديد وفحم فأخذ أبو المليح تلك السمكة العنبر فتركها فى المقلى فأخذت رائحة العنبر تفوح حتى لم يبق بمصر دار إلا ودخلتها تلك الرائحة، وشم الوزير

(١) راجع رسائل الوهرانى -- نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٢٤ أدب.
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٨.
(٣) نفس المرجع السابق ص ١١٤.
(٤) نفس المرجع السابق ص ١٩٨.
(٥) معجم الأدباء ج ٦ ص ١٠٤.

بدر الجمالى تلك الرائحة تزداد، فخشى أن يكون حريق وقع فى خزائنه فطلب من خزانه أن يفتشوها، فلما لم يجدوا شيئا طلب منهم أن يعرفوا سر هذه الرائحة، فجاءوه بالخبر اليقين فاستعظم القضية، وقال هذا الفاعل الصانع قد أكل أموالى واستبد بالدنيا دونى حتى أمكنه أن يفعل مثل هذا، فلما كان الغد دخل إليه وهو مغضب وقال له: ويحك! أستعظم أنا وأنا ملك مصر شراء سمكة من العنبر فأتركها استكثارا لثمنها، فتشتريها أنت، ثم لا يقنعك حتى تقلّيها، وتذهب فى ساعة ألف دينار مصرية. ما فعلت هذا إلا وقد نقلت بيت أموالى إليك، وفعلت، فقال له مماتى: . والله ما فعلت هذا إلا غيرة عليك، ومحبة لك، فإنك اليوم سلطان نصف الدنيا. وهذه السمكة لا يشتريها إلا ملك. فخفت أن يذهب بها إلى بعض الملوك، ويخبره بأنك استعظمتها ولم تشترها فأردت أن أعكس الأمر، وأعلمه أنك ما تركتها إلا احتقارا لها وأن كاتبا نصرانيا من كتابك اشتراها وأحرقها، فيشيع بذلك ذكرك، ويعظم عند الملوك قدرك. فاستحسن الوزير بدر الجمالى ذلك منه وأمر له بضعفى ثمنها كما زاد فى رزقه[1]. فإن صحت هذه القصة فهى تدل على أن أبا مليح كان يعيش فى عصر بدر الجمالى وأنه كان كاتبا من كتابه، وكان ذا دهاء ولؤم، وكان ذا فطنة وكياسة فاستطاع بكل هذه المزايا أن يصل إلى قلب وزير الدولة الأول وحاكمها الفعلى، ولعل لقب مماتى أطلق عليه أثناء الشدة المستنصرية التى انتهت بتسلم بدر الجمالى لزمام الحكم فى مصر، ويذكر أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت فى الرسالة المصرية أن ابن مكنسة الشاعر المعروف كان منقطعا إلى أبى المليح هو وغيره من الشعراء، وأن ابن مكنسة رثاه بقصيدة منها:

ماذا أرجى من حيا ... تى بعد موت أبى المليح
طويت سماء المكرما ... ت وكورت شمس المديح
ما كان بالنكس الدنـ ... ـى من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما ... غدروا به دين المسيح

فمن هذه المقطوعة نستدل على أن أقباط مصر ربما كانوا سببا فى قتله، فالتاريخ لا يحدثنا عن موت هذا الرجل، ولكن الشاعر هنا صريح فى هجاء النصارى الذين غدروا به وكان هذا الرثاء سببا فى أن يحرم الشاعر ابن مكنسة من عطاء الوزير الأفضل بن بدر الجمالى. إذ يقال إن الشاعر دخل إليه مادحا بعد توليته فقال له الوزير: ذهب رجاؤك بموت أبى مليح، فما الذى جاء بك إلينا؟ ولم يقبل مدائحه، وظل بعيدا عن بلاط الوزير

(١) راجع ياقوت معجم الأدباء ج ٦ ص ١٠٤ وما بعدها.

بسبب هذا الرثاء، إلى أن توفى.[1] وكان أبو مليح هذا هو رأس أسرة بنى مماتى التى نبغ فيها اثنان، المهذب الخطير وابنه أسعد بن المهذب، أما الخطير فكان يتولى ديوان الجيش[2] وقيل بل كان على ديوان الإقطاعات[3]، وقيل بلى على الخراج[4] والأصح عندى أنه كان على ديوان الجيش بمصر فى أواخر العصر الفاطمى، وظل يتمتع بحريته الدينية إلى أن استوزر أسد الدين شيركوه وعلم أن الخطير بن مماتى يتصرف فى عمله بلا غيار، فنهاه، وأمره بغيار النصارى وشد الزنار، ورفع الذؤابة، وصرفه عن الديوان، وفى ذلك يقول الخطير، وقيل إن هذين البيتين ينسبان لعمارة اليمنى:

يا أسد الدين ومن عدله ... يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غيارا شد أوساطنا ... فما الذى يوجب كشف القفا[5]

فبادر الخطير بن مماتى هو وأولاده وأسلموا على يد الوزير، فعفا الوزير عنه وأمره على ديوان الإقطاعات مدة، ثم صرفه بعد ذلك، فهجاه الوجيه ابن الذروى بأبيات منها:

لم يسلم الشيخ الخطير ... لرغبة فى دين أحمد
بل ظن أن محاله ... يبقى له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنـ ... ـه، فالعود أحمد[6]

وكان الخطير يتغزل فى ابن النحال وزير الملك العادل، وكان أيضا قبطيا وأسلم، فمن قوله فيه:

وشادن لما أتى مقبلا ... سبحت رب العرش باريه
ومذ رأيت النمل فى خده ... أيقنت أن الشهد فى فيه[7]

وكان ابن النحال يسكن فى أول درب نور الدين وكان فى آخر الدرب صبى جميل الوجه نصرانى يعرف بابن زنبور فقال فى ذلك الخطير:

(١) راجع أدب مصر الفاطمية ص ١٨٨ وما بعدها.
(٢) الخريدة ج ١ ص ١١٣.
(٣) ياقوت ج ٦ ص ١٠٩.
(٤) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٦٠.
(٥) ياقوت: معجم الأدباء ص ١١٠ وكتاب شعراء النصرانية بعد الإسلام.
(٦) ياقوت: معجم الأدباء ج ٦ ص ١٠٩.
(٧) العماد الخريدة ج ١ ص ٣١٥ وما بعدها.

حوى درب نور الدين كل شمردل ... مشددة أوساطهم بالزنانير
فأوله للشهد والنحل منزل ... وآخره يا سادتى للزنابير[1]

وله فى غلام قبطى أيضا:

يظلمنى العاذلون فى رشا ... إن قيل كالشمس كان مظلوما
مذ حل رسم الصليب فى يده ... حل بقلبى هواه مرسوما[2]

ومن قول الخطير فى مدح صلاح الدين الأيوبى:

أعاذلتى إن الحديث شجون ... مكان سليمى فى الفؤاد مكين
أأسمع عذلا فى التى تملك الحشا ... وأتبعه إنى إذن لخؤون
هل العيش إلا قرب دار أحبة ... هل الموت إلا أن يخف قطين
وهل لفؤادى منذ شط مزارها ... من الوجد إلا زفرة وأنين
أبيت رقيب النجم منها كأنما ... عيونى لم يخلق لهنّ جفون
كأن ظلام الليل إذ لاح بدره ... دجوجى شعر لاح منه جبين
كأن الثريا ترقب البدر غيرة ... فقد هجرت منها المنام عيون
كأن سهيلا فى مطالع أفقه ... فؤاد مروع خامرته ظنون
كأن السها تبدو أوانا وتجتلى ... لدى الليل سرا فى حشاه مصون
وقد مالت الجوزاء حتى كأنها ... كمى بخطى السماك طعين
كأن صلاح الدين للشمس نورها ... ولولاه ما كان الصباح يبين[3]

فهذه القصيدة تدلنا على دقة حس هذا الشاعر، ورقة شعوره، وعلى حسن اختياره للفظ الذى يتلائم فيه المعنى مع الموسيقى. ثم هذه التشبيهات الكثيرة التى تعطينا صورا مختلفة لهذا العاشق الذى فارقه حبيبه، فهو من وجده فى أنين وزفرة، وفى سهاد كأن عيونه لم يخلق لها جفون. وتشبيهه ظلام الليل وقد انتشر فى الأفق بينما لاح القمر فى السماء فى وسط هذا الظلام بوجه الحبيب عندما يسفر وقد أحاط به شعره الأسود. وهذه الثريا ترنو إلى القمر وكأنها فى غيرة منه وجعلتها هذه الغيرة لا تنام، وهذا كوكب سهيل يرتعش

(١) ياقوت. معجم الأدباء ج ٨ ص ١١.
(٢) العماد الخريدة ج ١ ص ١١٤.
(٣) العماد الخريدة ج ١ ص ١١٥.

وميضه كأنه خائف مرتاع تساوره الظنون والأوهام، وهذا نجم السها حينما يبدو ويختفى كأنه ذلك الذى يحفظ سرا لا يريد أن يطلع عليه أحد، وهذا كوكب الجوزاء وكأنه ذلك المقاتل الذى يطعن السماك، كل هذه الصور المختلفة رسمها لنا الخطير بن مماتى فى تلك الدقة التى تدلنا على أنه كان فنانا دقيق الحس حقا، واسع الخيال، يجيد فنه. ثم انظر كيف تخلص هذا الشاعر فى رقة ولباقة إلى الغرض من القصيدة وهى مدح صلاح الدين فشبه صلاح الدين بالشمس التى لولاها ما كان ينبلج الصباح. كل ذلك صور يتلو بعضها بعضا فى سهولة ورفق شأن الفنان المتمكن من فنه.

وتوفى الخطير فى ٦ رمضان سنة ٥٧٧ هجرية.

أما الأسعد بن مماتى فقد خلف أباه على ديوان الجيش وتصدر فيه مدة طويلة وأضيف إليه ديوان المال، واستمر على هذه الدواوين أيام صلاح الدين وابنه العزيز، واختص بالقاضى الفاضل فحظى عنده، وكرم لديه، وأشاع من ذكره، ونبه على فضله، وصنف للقاضى الفاضل عدة كتب باسمه، ومدحه بعدة قصائد منها:

لا تلم فى اضطرابنا لاحمراره ... جل نار القلوب من جلناره
وهو حد يكاد يقبض منه ... كل طرف لولا اعتذار عذاره
ما رأى منكرا رضاب مدام ... مذ روى طرفه حديث خماره
ليس فيه من راحة لمريد ... قبلة تطفئ اضطرام اضطراره
غير أن الحياء فيه مضاه ... للحيا فى انهماله وانهماره
أوْجَدَا الفاضل الذى أوجد الجو ... د فمن كفه انفجاره بحاره
ذلك السيد المشيد للمج ... د إلى أن أتى على إيثاره
من عذا الدهر باسمه باسم الزهـ ... ـر ضحوكا به بهار نهاره
لم يطفنا من بره ورد وعد ... لم يشنه انتظام شوك انتظاره[1]

ولعلك لاحظت فى هذه المقطوعة هذا التكلف وذلك التصنع الذى ظهر ظهورا لافتا فى كل بيت من تلك المقطوعة، فبالرغم من أن الأسعد لم يكن يميل إلى الجناس كما ذكرنا من قبل ولكنه هنا اضطر إلى أن يستخدمه لأنه كان يمدح القاضى الذى كان يعشق هذا التلاعب اللفظى فخاطبه الأسعد بالفن الذى يعشقه، وعلى هذا النحو من الشعر كان ينشد الأسعد كلما مدح الفاضل.

(١) العماد: الخريدة ج ١ ص ١١٣.

لم يـزل الأسـعد متصلا بالأيوبيين وعلـى ديوانهم إلى أن وزر ابن شـكر للملك العادل وكان بين الوزير الجديد وبين الأسـعد عداوة قديمة منذ كان الأسعد رئيسا على ابن شكر، وكثـيرا ما كان يهينه، فحقدها ابن شـكر عليه إلى أن صـارت إليه الوزارة، فأقبل بكليته على الأسعد، وفوض إليه جميع الدواوين لمدة سنة كاملة اطمأن فيها الأسعد إلى هذا الوزير الجديـد، ثـم أظهر الوزير حقده الدفين بعد مؤامرات دسـها عليه، وأول أعمال الأسـعد تأويلات نكبه على إثرها نكبة شنيعة، وطالبه بأموال جمة. لم يكن له وجه فيها، وأخال عليه الجنود فطالبوه وآذوه، وعلق فى المطالبة على باب داره فى الطريق العام إحدى عشرة مـرة فى يوم واحد؛ فلما رأى الجند أنه لا يسـتطيع الوفاء بالمال قيل له تحيل ونجم هذا المال، فقال الأسعد أما المال فلا وجه له عندى ولكن إن أطلقت استجديت من الناس فليس لى بعـد مـا أخذتموه درهم واحد، فأطلق بعد أن قسـط المال عليه، وبقى مدة قصيرة إلى أن حـل بعض القسـط عليه فاختفى فى مقبرة فى القرافـة، وأقام هناك مدة عام كامل، حتى ضاق الأمر عليه، فهرب قاصدا إلى الشام، وبينما هو فى الطريق لحقه فارس مجد سلم إليه مكتوبا، فإذا هو من الوزير يقول فيه:

– لا تحسب أن اختفاءك عنى كان بحيث لا أدرى أين أنت، ولا أين مكانك، فاعلم أن أخبارك كانت تأتينى يوما يوما، وأنك كنت فى قبور المادرائيين بالقرافة منذ يوم كذا، وأننى اجتزت هناك، واطلعت فرأيتك بعينى، وأنك لما خرجت هاربا عرفت خبرك ولو أردت ردك لفعلت، ولو علمت أنك قد بقى لك مال، أو حال لما تركتك، ولم يكن ذنبك عندى مما يبلغ أن أتلف معه نفسك، وإنما كان مقصودى أن أدعك تعيش خائفا، فقيرا، غريبا، ممججا فى البلاد، فلا تظن أنك هربت منى بمكيدة صحت لك على، فاذهب إلى غير دعة الله.

فعندمـا قـرأ الأسـعد هـذا الخطاب بقـى مبهوتـا إلى أن وصل حلب وقد أنشـد فى هذه القصة:

تـنـكـر لـى ود الـصـفـى ولـم أكـن ... بـه رافـعـا رأسـا لـو اعـتـدل الـزمـن
ولـكـن عـلا عـنـد انـخـفـاض وسـاءنـى ... وحسبك من شخص تـركـت لـه الـوطـن

وقال أيضا إبان محنته:

لا تـقـبـلـن مـن الـوشـا ... ة وتـقـبـلـن عـلـى الـعـواذل
فـالـعـيـن قـد جـنـت بـبـعـد ... ك والـدمـوع لـهـا هـواطـل

واتصل هناك بالوزير جمال الدين الأكرم، ونزل فى داره. وعندما عرف الملك الظاهر ابن صلاح الدين خبره أجرى عليه رزقا دون أن يستعمله إلى أن توفى بحلب سنة ست وستمائة للهجرة.

كان الأسعد بن مماتى من الأدباء المؤلفين ويذكر ياقوت من كتبه كتاب تلقين التفنن فى الفقه، وكتاب سر الشعر، كتاب علم النثر. كتاب سلاسل الذهب، وهو ذلك الكتاب الذى ألفه للقاضى الفاضل، وكان أولا بعنوان الشىء بالشىء يذكر. فسماه القاضى الفاضل بسلاسل الذهب، كتاب تهذيب الأفعال لابن ظريف، كتاب قرقرة الدجاج فى ألفاظ ابن الحجاج، كتاب الفاشوش فى أحكام قراقوش وكتاب لطائف الذخيرة لابن بسام، كتاب ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار، كتاب سيرة صلاح الدين، كتاب أخاير الذخائر. كتاب كرم النجار فى حفظ الجار ألفه باسم الملك الظاهر عندما قدم عليه حلب، إلى غير ذلك من الكتب التى ذكرها ياقوت. ويصف ياقوت هذه الكتب بقوله: «وله تصانيف كثيرة يقصد بها قصد التأدب، وفى معرض وقائع تجرى، ويعرضها على الأكابر لم تكن مفيدة إفادة علمية، إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبى وأضرابه»[1].

ولم يذكر ياقوت كتابين ذكرهما ابن خلكان: الأول كتاب نظم كليلة ودمنة، والثانى ذلك الكتاب القيم كتاب قوانين الدواوين الذى نشره الأستاذ الدكتور سوريال عطية.

من هذا كله نستدل على أن الأسعد لم يكن شاعرا فحسب أو كاتبا من كتاب الدواوين المالية، إنما كان أديبا مؤلفا. كما كان سريع البديهة حلو النكتة. أما شعره فهو مثل شعر القاضى الفاضل ضعيف فى جملته لم يرتفع إلى درجة غيره من الشعراء المعاصرين وذلك بسبب هذا التكلف الذى اضطر إليه. فانظر إليه وهو ينشد علم الرؤساء ابن رفاعة:

إن قلبى من شقة البين يخشى ... وفؤادى من شقوة البين يخشع
ومقامى يقضى بطول سقامى ... إذ لحاظى من قبل تطمح تطمع
وغدوى فيما يسر عدوى ... ويريه من القلى ما توقع
ولقد عيل فى الصبابة صبرى ... فإلى كم أسير فى غير مهيع
أنا صب بغادة تشبه الظبا ... ووس إذ كان حسنها يتنوع
ذات لفظ كأنه ثغرها الأشـ ... ـنب لو أن درّه يتجمع

(١) ياقوت: ج ٦ ص ١١٧.

لى من عجبها رقيب قريب ... فهى فى كل حالة تتمتع
منعت طيفها الزيارة حتى ... صرت من منعها له لست أهجع
واستقلت دمعى غداة استقلت ... بجمال فقلت لو كان ينفع
هو منى دم جرت معه العـ ... ـين فقالوا دمع لأنى أجزع
ثم ولت سقما على وولت ... وفؤادى مما تصدى تصدع
قلت إلا وقفت يا شمس للصـ ... ـب فقالت هيهات ما أنت يوشع
وغرامى بها كفضل أبى القا ... سم فى كل ساعة يتفرع
كم أرانا الرياض فى لفظة النـ ... ـثر فخلنا دروجه تتوشع
وسقانا مدام معنى بديع ... فى قريض مصرع بل مرصع[1]

لعلى فى غنى عن التعليق على ضعف هذا الشاعر، فصناعته واضحة فى القصيدة، غير أن لهذا الشاعر مقطوعات خالية من التكلف وصادرة عن طبيعته نستطيع أن نلمس فيها فنه الطبيعى فمن ذلك قوله يصف جزيرة الروضة:

جزيرة مصر لاعدتك مسرة ... ولازالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن بابة ... يميت ويحيى هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجا ... ومختلفات الموج فيها جمالها
ومن أعجب الأشياء أنك جنة ... ترف على أهل الضلال ظلالها[2]

وقوله فى وصف الخليج:

خليج كالحسام له صقال ... ولكن فيه للرائى مسرة
رأيت به الملاح تعوم فيه ... كأنهم نجوم فى المجرة[3]

هكذا نرى جميع شعراء مدرسة الشعراء والكتاب يضعف شعرهم عندما يتعمدون الزينة والتكلف، ويرق شعرهم عندما يعودون إلى طبعهم.

(١) العماد الخريدة ج ١ ص ١٠٤.
(٢) السيوطى. حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٧.
(٣) نفس المرجع السابق.

خاتمة

هكذا كانت حياة الشعر فى العصر الأيوبى، تعددت أغراضه وموضوعاته بتعدد الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى طرأت على مصر فى هذا القرن من الزمان. عبر عنها الشعر تعبيرا دقيقا هو ذلك التعبير الذى شعر به الشعب المصرى أمام هذه الأحداث الجسام، لم يكن الشعر متصلا بالأمراء والسلاطين فحسب، إنما اتصل بصميم الحياة، أصبحنا نرى الشعر المصرى مرآة للحياة المصرية من جميع نواحيها، وليس مرآة لحكامها فقط، فقد انحرف الشعراء بعض الشىء عن الملوك وبدأوا يتصلون بالوزراء، وولاة الأقاليم، ورؤساء الدواوين. كما اتصل بعضهم ببعض، واتصلوا أيضا ببقية الشعب، فأصبح شعر هذا العصر من الوثائق التاريخية الهامة التى يجب أن نعتمد عليها فى تصوير بيئتنا المصرية فى النصف الأخير من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع من قرون الهجرة، أضف إلى ذلك كله أن هذه الأحداث التى مرت بالبلاد فى هذه الفترة أوجدت فنونا جديدة لم يعرفها أدبنا العربى فى كل بيئاته من قبل. إنما وجدت فى هذا العصر على نحو ما ذكرناه. فكان الشعر معبرا عن هذه التطورات التى حلت بالعالم الإسلامى، خيرها وشرها. هذا مع ما طالبت به البيئة المصرية من إخضاع الفن لها، فوجدنا الشعراء يتجهون إلى هذا الأسلوب السهل الرقيق. وإلى الفكاهة الحلوة، وإلى المقطوعات بدلا من القصائد، وإلى الأوزان الخفيفة أو المجزوءة بدلا من الطويلة، كل ذلك كان بتأثير بيئة مصر السهلة اللينة، ثم ما نراه من مبالغة شديدة تلك المبالغة التى تعتبر من أخص خصائص المصريين فى أقوالهم وأفعالهم. كل ذلك ظهر بوضوح فى شعر المصريين فى العصر الأيوبى. لم تنس مصر شخصيتها، وهى تحت حكم الأكراد، ولم تفقد مصر كيانها. أو قوتها حينما كان يحكمها أغراب عنها. فمصر هى مصر، إن خضعت حربيا للفاتحين فإنها تستطيع أن تهضمهم وأن تخضعهم لها. دون أن تخضع هى لهم. أو تفنى هى فيهم. وهذه هى مصر فى كل عصورها التاريخية، أحداث تتجدد عليها وهى صامدة كالطود الراسخ، لا تؤثر فيها تلك الأحداث. إلا كما يؤثر النمل فى الجبل. لا تفقد شخصيتها مع الزمان.

وتوالى الأيام، إنما تسخر هى من الأحداث والنوائب، وتخرج من كل حادثة وقد انتصرت، وستظل مصر كذلك مدى الدهر، فى سخرية من القدر، وفى قوة كامنة لا تقهر، وفى اعتزاز ومحافظة على شخصيتها.

وبعد، أرجو أن أكون قد وفقت إلى إظهار حياة الشعر فى هذا العصر، ولا يسعنى إلا أن أقدم شكرى إلى أبنائى الطلبة أحمد جابر النحاس، وأسامة يوسف أحمد، وحسن دسوقى عبد الجواد الشـرقاوى لما أظهروه من تضحية بوقتهم فى سبيل زملائهم، وما تجشموه من تعـب، وأنا أملى عليهـم هذا الكتاب الذى اضطررت إلى أن أتمـه فى هذا الوقت القصير حرصا على مصلحة الطلبة، وما قاموا به من تصحيح تجارب المطبعة، مما لا يسعنى إلا أن أذكر ذلك لهم، وإعجابى بما بذلوه.

محمد كامل حسين

الجيزة فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٧م

obeikandl.com